إعادة قراءة مبادئ وأساسيات التفسير العلميحسب آراء المفسرين

داود إسماعيلي

أستاذ مساعد بقسم علوم القرآن والحديث

كلية الالهيات ومعارف اهل البيت /جامعة أصفهان/ايران

d.esmaely@theo.ui.ac.ir

الملخص

جاء التفسير العلمي متأثِّراً بنشأة العلوم الحديثة في المجتمعات الإسلامية، وردّاً على آراء المستشرقين والمسلمين خِرِّيجي الجامعات الغربية، إذ تعزو هذه الثلّة أسبابَ التأخّر والضعف لدى المجتمعات الإسلامية إلى التمسك بالحقائق الدينية والقرآن، حيث ترى المهربَ من هذه الأوضاع إهمالَ الدين والاكتفاء بالعقل والتجربة المادية البشرية. حتى سعى عدد من المفكرين والمفسرين للرّدِّ على هذا التيّار الفكري، عبر نفي التعارض وأحياناً عبرَ إثبات التناسق بين العلوم التجريبية والقرآن، وبيّنوا بذلك أنّ الغاية من التفسير العلمي هي استخدام الحقائق والاكتشافات المصنّفة ضمن العلوم التجريبية، لإيضاح واتساع دائرة شمول معاني الآيات القرآنية، وأقرُّوا بأنّ تفسير آيات القرآن على ضوء الاكتشافات ومسلَّمات العلوم التجريبية وفق دلالة ألفاظ القرآن الكريم، هو القصد من التفسير العلمي.

يشير هذا البحث إلى آراء المفسرين المؤثرين في نشأة هذا التيّار التفسيري، كما يشير إلى الخلفيّة والتطور التاريخي لهذا التيار، ويعتبر خلود القرآن وجامعية، وقبول اللغة العلمية إلى جانب اللغة العرفية، وموضوعية المباحث العلمية، وعدم منافاة هداية القرآن والبحث فيه حول المسائل العلمية، يعتبرها كلها من المبادئ المهمة لهذا التيّار التفسيري.

الكلمات المفتاحية: القرآن، التفسير العلمي، مبادئ التفسير، هداية القرآن، اللغة العرفية.

Summary

The scientific interpretation was influenced by the emergence of modern sciences in Islamic societies, and in response to the views of orientalists and Muslims graduates of Western universities. This group attributes the causes of delay and weakness in Islamic societies to adherence to religious facts and the Qur'an, as they see the escape from these situations is neglect of religion and contentment with reason and human material experience.

Until a number of thinkers and commentators sought to respond to this intellectual trend, by denying the contradiction and sometimes by proving consistency between the experimental sciences and the Qur'an, and thus they showed that the purpose of scientific interpretation is to use facts and discoveries classified within the empirical sciences, to clarify and expand the scope of the comprehensiveness of the meanings of the Qur'anic verses, and they acknowledged that Interpreting the verses of the Qur'an in the light of discoveries and postulates of experimental sciences according to the meaning of the words of the Noble Qur'an, is the intent of scientific interpretation. This research refers to the opinions of influential commentators on the emergence of this interpretive current, as well as the background and historical development of this current, and considers the immortality

of the Qur'an and university, the acceptance of the scientific language alongside the customary language, the objectivity of scientific investigations, and not contradicting the guidance of the Qur'an and its research on scientific issues, which it considers All of these are important principles of this exegetical current.

١. المقدمة

إنّ للتفسير العلميّ للقرآن جذوراً في بعض كتب التفسير المتقدِّمة، ولكن التفتَ له المفسرون والباحثون في المجالات القرآنية كتيّار مستحدَث في الدراسات القرآنية وذلك بسبب الظروف الخاصة التي مرَّ بها العالم الإسلامي في القرنين المنصرمين. يسعى المفسِّر عبر هذا التيار التفسيري أن يحلّل التعاليم الدينية من منظور العلوم التجريبية والاكتشافات الحديثة بدلَ التأكيد على الأبعاد الصورية والأدبية للآيات.

لذلك نجد مخالفين وموافقين عديدين أرهقوا أقلامهم لجواز أو عدم جواز هذه الرؤية التفسيرية. فالمعتقدون بها يجدونها خطوة لإثبات خلود المصاديق القرآنية، ويذودون عن هذا التفسير عبرَ تبيين أساسياته ومبادئه، لكنّ الرافضين له، بالرغم من قبولهم لخلود القرآن، يجدونه مباينا مع رسالة القرآن في هدايته، وتكليفا له بما لا يطيق من حيث احتمال بطلان الحصيلة البشرية. إضافة على هذا الاختلاف، فالمؤيِّدون للتفسير العلمي يختلفون فيما بينهم في تبيين أساسيات هذا التفسير أيضا. إذ تدلّنا قراءة المصادر المكتوبة إلى أنَّ هذا الخلاف نتيجةُ تعدّد المآخذ من مفهوم "أساس" التفسير، وقسم آخر من هذا الخلاف يعود إلى خلط أساسيات التفسير العلمي مع الخصائص التي تأتي حصيلةً للتمسك بأساسيات هذا التيار الخاصة، عند تفسير الآيات. لذلك سعى الكاتب أن يستعرض أساسيات هذا التيار التفسيري وفق أقوال مفسري هذا

التيار نفسه. إذن، وفق نتائج هذا البحث، قد كان المفسرون يعتمدون أربعاً من الأساسيات الخاصة للتفسير العلمي. بالرغم من أنّ توجُّه هؤلاء المفسرين لم ينعطف إلى هذه الأساسيات على حد سواء، فلم تظهر نتائجهم بشكل متحد.

٢. تعريف التفسير العلمي للقرآن

لقد قُدِّمت تعاريف مختلفة للتفسير العلمي، منها قول أمين خولي: «هو التفسير الذي يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها.» (خولي،١٩٣٣: ٥/ ٣٥٧) وقد كرّر الذهبي هذا القول نفسه (الذهبي، د. ت: ٢/ ٤٧٤)، وعدَّ ذلك عمر أحمد أبو حجر سعيا لفهم العبارات القرآنية من منطلق العلم حيث يُكشَف بذلك سرٌّ من أسرار إعجاز القرآن (أبو حجر، ١٤١١: ٦٦) لكن حافظ إبراهيم يعتقد «أنّ التفسير العلمي الذي ظهر بوضوح في القرنين الهجريين الرابع عشر والخامس عشر لمواكبه التغييرات السريعه في العلوم والمعارف ولمحاوله عرض فهم جديد لآيات القرآن أو بالأحرى فهم جوانب علمية لم يتنبهِ إليها سلفُنا من قَبل أو لم تتوفر لديهم المعلومات في عصورهم ليستعملوها في القرآن» (السيّد غنيم، ١٤١٥: ٨٨). ويقول عبد الرحمن العك: «أدخلنا هذا التفسير في بحث «التفسير الإشاري»؛ لأنه لا تنطبق عليه شروط التفسير العقلي الاجتهادي، ولا يخضع لتلك الضوابط التي وضعها العلماء لتفسير النصوص القرآنية، وذلك لأن هذا التفسير يقوم أصلا على شرح وإيضاح الإشارات القرآنية التي تشير إلى عظيم خلق الله تعالى، وكبير تدبيره وتقديره، لتلك الآيات المنظورة في هذا الكون المعمور.» (العك، ١٤١٤: ٢١٧) لكن الرومي يقول بعد نقده لبعض هذه التعاريف: «الذي يظهر لي ـ والله أعلم ـ أنّ التعريف الأقرب إلى أن

يكون جامعا مانعا أن يقال: المراد بالتفسير العلمي هو اجتهاد المفسر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكريم الكونية ومكتشفات العِلم التجريبي على وجه يظهر به إعجاز للقرآن يدل على مصدره، وصلاحيته لكل زمان ومكان.» (الرومي، ١٩٩٧: ٢/ ٥٤٩).

علينا الآن وبعد ملاحظة هذه التعاريف وما تشكل لدينا بعنوان التفسير العلمي أن نقول: ليس القصد من مصطلح "التفسير العلمي" أنّ ما عداه من التفاسير ليست علمية، بل المراد من تقييد هذا التيار التفسيري بال"علمي" أن يُفَسَّر القرآن عبر العلوم التجريبية المحسوسة. لذلك تُصبح غاية المفسر من هذه الطريقة التفسيرية أن يكشف معاني الآيات عبر استخدام الحقائق والاكتشافات التجريبية ليوسّع مدلولَ العبارة القرآنية. إذن علينا أن نقول وفق هذا، إنّ القصد من التفسير العلمي هو تفسير القرآن على ضوء اكتشافات العلوم التجريبية نظرا لدلالة ألفاظ القرآن الكريم، وبهذا البيان يتضح أنّ العلوم التجريبية ليست حاكمة على النص القرآني بل هي تجيء لتخدمه.

٣. تاريخُ تفسير القرآن العلمي

لم يَخفَ حَثُّ الآيات وترغيبها للمسلمين للخوض في غمار العلم والحكمة منذ بداية نزول الآيات على قلب الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) على أحد من المسلمين. فأصبح السعي لفهم الآيات القرآنية وكسب العلم والحكمة هاجسا لدى كلِّ مفكر من المسلمين منذ البداية، ولهذا السبب تمّت ترجمة التراث الإغريقي إلى العربية في تلك القرون البدائية وتلاها البحث في ماهية العلوم الأخرى وصِلاتها في حيِّز المعرفة الدينية. ويمكن العثور على جذور نشأة العلوم العقلية في العالم الإسلامي في أحضان ذلك الهاجس المتأصِّل . لدى المسلمين. كما تلوحُ لنا بوادر نشأة

التفسير العلمي لآيات القرآن في القرون الأولى في تراث المفكرين المعاصرين للقرون البدائية من الحضارة الإسلامية. ومِن أبرز أولئك المفكرين الذين يمكن أن نعثر على نماذج من التفسير العلمي في كتبهم هو "ابن سيناء" (٤٢٨ق)، مثلاً، حيث يقول في تفسير هذه الآية الشريفة: «وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ» (الحاقة: ١٧) إنّ العرش هو الفلك التاسع في النظام الفلكي البطليموسي والملائكة الثمانية الحاملين للعرش هي الأفلاك الثمانية (الذهبي، د. ت، ٢: ٤٢٦). كما يمكن العثور على مثل هذا التفسير بعدَ ابن سيناء، في تراث المتقدمين من المفسرين والباحثين في المجالات القرآنية. فإنّ الطوسي (٤٦٠ق) أيضا يذكر رأي أبي علي الجبائي في الآية ٢٢ من سورة البقرة «الَّذِي جَعَلَ لَكمُ الْأَرضَ فِرَاشًا» ثم ينقده فيقول: «استدل أبو علي الجبائي بهذه الآية، على أنّ الأرض بسيطة ليست كُرةً كما يقول المنجمون والبلخي بأن قال: جعلها فراشاً. والفراش البساط بسط اللَّه تعالى إياها. والكرة لا تكون مبسوطة. قال: والعقل يدل أيضاً على بطلان قولهم؛ لأنّ الأرض لا يجوز أن تكون كروية مع كون البحار فيها، لأنّ الماء لا يستقر إلا فيما له جنبان يتساويان، لأنّ الماء لا يستقر فيه كاستقراره في الأواني. فلو كانت له ناحية في البحر مستعلية على الناحية الأخرى، لصار الماء من الناحية المرتفعة إلى الناحية المنخفضة. كما يصير كذلك إذا امتلأ الإناء الذي فيه الماء. وهذا لا يدل على ما قاله؛ لأنّ قولَ من قال الأرض كروية، معناه إنّ لجميعها شكل الكرة.» (الطوسي، د. ت: ١: ١٠٢) كذلك يقول في تفسير الآية ١٦٤ من سورة البقرة: «وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ» عن إمكان تراكم السحاب من البخار الصاعد من الأرض (نفس المصدر، ٢: ٥٨).

كذلك يقول الغزالي (٥٠٥ق) عبر تساؤله عن وجود علوم كالطب والنجوم والسحر، وغيره في القرآن: إنّ لكل هذه العلوم والعلوم الأخرى التي لم نشر إليها، جذوراً في القرآن. فإنّ كلها تستسقي من بحر معرفة الله والذي هو بحر الأفعال الإلهية... لقد أشير في القرآن إلى العديد من العلوم، وإنّ القرآن يحتوي على علوم الأولين والآخرين كما علينا بأن نصل إلى تفصيل مجمل الآيات عبر التدبر والتفكر فيها، وإنّ القرآن محيط ليس له ضِفةٌ ولا ساحل (الغزالي، ١٤٠٢: ١/ ٤٥). كما يؤكد ذلك في كتابه جواهر القرآن ويفصّل البحث حوله (الغزالي، د. ت: ٨).

كذا يقول الطبرسي (٥٤٨ق) في تفسير الآية ٢٩ من سورة البقرة «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم» بعد الإشارة إلى قول علي بن عيسى بالاستناد إلى الآية ٤١ من سورة فاطر «إِنَّ اللهَ يمْسِك السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً» أنه يعتقد أنّ الله فصل في التعبير بين السماوات والأفلاك بسبب أنّ الأفلاك متحركة والسماوات ثابتة، يقول: «هذا الرأي ضعيف؛ لأنّ كلام الله في هذه الآية الشريفة يعني: أن السماوات لن تزلَّ عن القطب الذي تدور حوله، وإن كان مديرها غير الله لزلَّتْ.» (الطبرسي، ١٣٧٢: ١/ ١٧٤) في الواقع، إنّ الطبرسي عبرَ هذا الكلام، انحاز إلى النظام الفلكي البطليموسي الذي كان يعتقد أنّ السماوات هي الأفلاك. إنّ الأفلاك في مصطلح النظام الفلكي البطليموسي تشتمل على سبعة أفلاك (القمر، الزهرة، عطارد، المريخ، زحل، المشتري، والشمس) التي تدور كلها حول الأرض، لكن هذا لا يعني أن الطبرسي يوافق رأي الغزالي؛ لأنّ الطبرسي فسّرَ جامعية القرآن بأنه يجيب إلى الأسئلة

الدينية فحسب، خلافا للغزالي الذي كان يعتقد أنّ كلَّ شيء يوجد في القرآن. فيقول الطبرسي في تفسير الآية ٨٩ من سورة النحل «نَزَّلْنا عَلَيك الْكتابَ تِبْياناً لِكلِّ شَيءٍ» إنا نزلنا إليك القرآن ليكون بيانا لكل الأمور المستعصية. وهذا يعني أنه يبيِّن ما استعصى من الأمور الشرعية التي يحتاج إليها الناس؛ لأنه ليس من أمر يحتاج إليه الناس من حيوث دينية إلا وقد صرَّح به القرآن أو أوكل به إلى الرسول وخلفائه أو أُحيل إلى إجماع الأمة، إذن يستخرج حكم هذه الأمور من القرآن الكريم.» (الطبرسي، ١٣٧٢: ٦/ ٥٨٦).

إنّ الفخر الرازي (٦٠٦ق) من المفسرين الذين قد ذكروا في تفاسيرهم المسائل العلمية وركّزوا عليها. في الواقع يمكننا أن نعدَّه مُحيياً لرأي الغزالي في رؤيته العلمية حِيالَ القرآن، فإنه أطنب في هذا الأمر في "التفسير الكبير" ، واهتمَّ كثيرا بأن يطبِّقَ علومَ زمانه على آيات القرآن، لذلك تجده يكتب في مطلع تفسيره عن تفصيله لمحاولة هذا الأمر: «اِعلم أنه مرّ على لساني في بعض الأوقات أنّ هذه السورة الكريمة (سورة الحمد) يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة، فاستبعدَ هذا بعض الحساد، وقوم من أهل الجهل والغي والعناد، وحملوا ذلك على ما ألفوه من أنفسهم من التعلقات الفارغة عن المعاني، والكلمات الخالية عن تحقيق المعاقد والمباني، فلما شرعت في تصنيف هذا الكتاب، قدمت هذه المقدمة لتصير كالتنبيه على أن ما ذكرناه أمر ممكن الحصول، قريب الوصول.» (الفخر الرازي، ١٤٢٠: ١/ ٢١). وقد استدل بالآية ٢٢ من سورة البقرة: «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشاً» على سكون الأرض (نفس المصدر: ٢/ ٣٣٦) وعلى ضوء الآية ٢٩ من سورة البقرة: «فسواهنّ سبع سماوات» يطبق السماوات السبع على النظام الفلكي البطليموسي (نفس المصدر،

١٤: ٢٧١). وفي تفسير الآية الشريفة ١٦٤ من سورة البقرة: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ» يذكر حالات السماوات على ضوء النظام الفلكي ويشير إلى ترتيب الأفلاك ومعرفتها، ومقدار حركتها وكيفية الاستدلال عبرها على وجود الله في عدة فصول، وفي طيِّها يناقش آراء بطليموس وقدماء الهند والصين وبابل ومصر والروم والشام (نفس المصدر،١٤٢٠: ٤/ ١٥٢ ـ ١٦٢).

ويقوم بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (م ٧٤٦ق) في "تفسير البرهان" بمتابعة رأي الغزالي أيضا، عبر تكرار مستنداته، ويشير ضمن بحث مستقل تحت عنوان "في القرآن علم الأولين والآخرين" بأن ليس مِن علم إلا ويمكن استخراجه من القرآن عند الذين منحهم الله فهم الكتاب. فهو يدافع عن ظهور بعض الحقائق كظهور عدد سنيِّ عمر الرسول في الآية ١١ من سورة المنافقون: «وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها» لأنّها هي السورة رقم ٦٣ في القرآن وتليها سورة التغابن والتي تعكس الحزن على فقد الرسول (الزركشي، ١٤١٠: ٢/ ٣٢٠). كذلك يكرِّر جلال الدين السيوطي (م ٩١٠ق) كلام الغزالي والزركشي، في النوع الخامس والستين من الإتقان والذي أسماه "في العلوم المستنبطة من القرآن" ويؤيد كلامهما بآيتين إحداهما الآية ٣٨ من سورة الأنعام «ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ» والأخرى هي الآية ٨٩ من سورة النحل «وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ» وعبر روايات أخرى، ويقول بأنّ القرآن يشتمل على جميع العلوم، كما أنه يؤيد موافقة الآية ١١ من سورة المنافقون «وَلَنْ يؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُون» مع عمر الرسول ويشير إلى العديد من العلوم التي توجَّه إلى أسسها القرآن (السيوطي، ٢٠٠١، ٢: ٢٥٨ ـ ٢٦٨).

٤. التفسير العلمي للقرآن في مسيره التاريخي

بالرغم من أنّ هناك مآخذَ عديدة بالنسبة إلى التفسير العلمي إلا أنّ جُلَّ المفسرين يبينونه عبر أربع مراحل:

١. في البداية، من القرن الثاني الهجري حتى الخامس الهجري، والذي ابتدأ عند ترجمة التراث الإغريقي إلى العربية حتى سعى بعضُ المسلمين في تفسير آيات القرآن على غرار النظام البطليموسي.

٢. بداية العصر الثاني كانت عند القرن السادس تقريبا، حين مالَ عدد من العلماء إلى تلك النظرية التي تدّعي بأن جميع العلوم متوفرة في القرآن ويمكن استخراج علوم عديدة منه. وكان الغزالي على رأس قائمة أولئك العلماء، إذ كان يعتقد أنّ القرآن يشتمل على جميع علوم الماضي والمستقبل كما يمكن استخراج جميع العلوم منه (الغزالي، ١٤٠٢، ١: ٣٤١). إنه يشير في كتابه "جواهر القرآن" إلى كيفية وطريقة اشتقاق العلوم العديدة من القرآن ويصرّح بأنّ القرآن محيطٌ تنشعب منه علوم الأولين والآخرين، كما تنشعب من سواحل البحار، الأنهار والوديان (الغزالي، د. ت: ٨). لكنّ الغزالي لا يدخل بالتفصيل إلى التفسير العلمي للآيات، بيدَ أنه يجعل الطريق سَمْحاً ومُعبَّداً لأمثال الفخر الرازي، كي يكشفوا مصاديق عديدة من التفسير العلمي لآيات القرآن عبر اقتفاء أثره. ومن اللامعين في هذا العصر يمكننا عَدّ صدرَ الدين الشيرازي وأصحاب الحكمة المتعالية. إنّ صدر الدين قد تحرَّى في كتبه التفسيرية من طرح المباحث العلمية وبادَرَ لتكوين تناسقٍ بين آيات القرآن والعلوم الطبيعية في عصره. فمثلاً إنه ذكر في تفسير الآية ٣٩ من سورة يس «والقمر قدّرناه» بأنّ ضوء القمر هو ضوء الشمس نفسه، ينعكس إلينا عبر سطح القمر (صدر الدين شيرازي، ١٣٦١، ٥: ١٠٤).

٣. العصر الثالث للتفسير العلمي كان في القرن ١٨ الميلادي تزامناً مع تطوّر العلوم التجريبية في مغارب الأرض. في هذه الفترة تمّت ترجمة كتب عديدة في علم الفيزياء والكيمياء والطب والنجوم إلى العربية. ولقد أمسى هذا العصر سببا لقيام العلماء المسلمين بمبادرة لتطبيق القرآن مع العلوم التجريبية، كما أثَّرَ هذا العصر على العالم الإسلامي وعلى مصر والهند خاصة في القرن المنصرم الأخير.

أصبحت هذه المسألة أبلغ أهمية عند نشوب تعارض العلم والدين في أوروبا، وصار الكتاب المقدس يتراجع إلى الخلف بسبب تعارضه مع العلوم الجديدة شيئا فشيئا، كما فتح المجال إلى نشأة الأفكار الإلحادية والتي هي في تضاد مع الدين.

إنّ هجمة هذه الأفكار على الدول الإسلامية بسبب التفوق الصناعي لدى الغرب، أثَّرتْ في انجراف الشباب المسلمين إلى الثقافة الغربية. لذلك قام بعضُ المفسرين في هذا العصر مع تأصيل صحة النظريات العلمية بتطبيق آيات القرآن معها كيفما كان. وقام آخرون بالدفاع عن القرآن نظراً لتناسق العلم والدين حسب رأي الإسلام، ودخلوا الحلبة ليبينوا أنّ آيات القرآن ليست متعارضة مع العلوم الحديثة، بل إنّ الحصيلة العلمية تثبت إعجاز القرآن العلمي.

٤. العصر الرابع يتعلق بأواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين والذي تحولت فيه العلوم التجريبية والرياضيات تحولاتٍ جذرية حتى أفضت بتغييرات كبيرة بالعلاقات بين العلم والدين. ففي هذه المرة كانت العلوم التجريبية هي مَن يعاني من النقد اللاذع وانهيار أنظمتها المتجذرة بسبب ظهور أنظمة علمية حديثة. كانت قد ابتدأت هذه التحولات عبر التغييرات الشاملة في مجال الفيزياء والميكانيكا وعند ظهور فلسفة العلم والتي تعتني بالبحث

حول الأسس النظرية والفلسفية للعلوم التجريبية. إنّ الرياضيات كانت ترى الهندسة الإقليدية مَثَلَها الأعلى، وكانت هذه الهندسة هي المجلّية الوحيدة منذ ٢٠٠٠ عام حيث لم تخدش ساحتها بشيء، لكنها خضعت لتغييرات جذرية. كما أنّ الفيزياء النيوتونية (الميكانيكا الكلاسيكية) التي كانت تُعَدُّ الأنموذج الأكبر للتفكر العلمي منذ ٢٠٠ عام، واجهت تغييرات كبيرة بل دنت من انهيارها عند ظهور نظرية النسبية لأينشتاين ونظرية ميكانيكا الكم أو الفيقياء. تظهر أهمية هذه المسألة عندما نعرف أن الفيزياء النيوتونية كانت قد بلغت لدى الفلاسفة والعلماء مكانة لا يُتَصوَّر دحضُها أبدا. كانت الفيزياء النيوتونية قد تحوّلت إلى أيقونة مُثلى أو إلى صنم، حتى أنهم أسموا القرن ١٨ بعصر نيوتون والفيزياء النيوتونية.

رغمَ أنّ المسلَّمات الفلسفية لنظريات العلوم التجريبية كانت قد خضعت للنقد من جانبٍ ومن جانب آخر خضعت نتائجها الفلسفية أيضا للنقد والبحث العميق من قبل فلاسفة العلم، لكن هناك حقيقة واحدة كانت تتجلى بالنسبة إلى علاقة العلم والدين، وهي أنّ العلوم التجريبية كانت قد خسرت مكانتها الصنمية السامقة، فكان مدافعوها ينظرون إلى الدين بمزيد من الاحتياط والتواضع قياسا مع السابق. بعدها عادت مسألة الدين إلى مركز الأبحاث الفلسفية حتى أفضى ذلك إلى نشأة فلسفة الدين وتطورها. فما قد أصبح الآن مثيرا للانتباه هو ليس رفض إحدى ثنائية العلم والدين بصالح الآخر، بل صار السؤال عن نوعية علاقتهما مع البعض.

بتعبير آخر، صار الحديث في هذا العصر عن التناسق والعلاقة بين العلم والدين وهذا يحتاج إلى أبحاث جديدة لكشف نوعية

علاقة الآيات المنزَلَة مع الأدوات العلمية. فلا حاجة في هذا العصر لِعَدِّ النظريات العلمية ضمن المسلمات لتطبيق الآيات القرآنية عليها، ولا حاجة لاستخراج تلك النظريات من الآيات، بل يجب العثور على نوعية العلاقة بين الآيات المنزلة مع الأدوات العلمية ذات الصلة بمواضيع متحدة لتبيينها ودراستها.

من هذا المنطلق، يحتاج تفسير الآيات العلمي في العصر الرابع إلى منهجية دقيقة وخاصة به؛ منهجيةٍ تتبيّن من خلالها طريقة تلك العلاقة بوضوح، حتى تتضح مكانة السنخين؛ أي الأدوات القرآنية والأدوات العلمية حول مواضيع متحدة من العالم (مصلايي پور، ١٣٩١: ١٠٥).

٥. التفسير العلمي من منظور المفسرين

إنّ ملاحظة التفاسير العلمية تشير إلى أن أمثال هذه التفاسير ظهرت بشكل جاد ومبسَّط بعد تعرف العالم الإسلامي على الغرب، وكما سنذكر لاحقا أنَّ بعد فتح نابليون لمصر، أدرك المسلمون مدى ضعف قواتهم العسكرية بل أدركوا تأخرهم العلمي بعد تعرفهم على علوم ومعلومات حديثة أخرى، إضافة إلى ضعفهم وتأخرهم العسكري. ومن جهة أخرى لم يقم الفرنسيون بالقتل والسلب والنهب والتدمير بعد دخولهم لمصر، بل حاولوا أشدَّ محاولة لتعميم الدراسة والتحقيق والمطالعة لأغراض يمكن أن تكون بغية الاستعمار، حتى أنهم أثاروا استحسان المصريين. فتعقيبا على هذه الأحداث، توثقت العلاقات العلمية بين المفكرين المسلمين والدول الأوروبية الأخرى عبر الدراسة والترجمة وما إلى ذلك.

من المسائل العلمية التي تعرَّف عليها المسلمون في تلك الآونة، هي النسبة بين العلم والدين أو النسبة بين الأدوات القرآنية والعلوم البشرية والتجريبية. وينبغي الإيضاح بأن نشوب التعارض بين العلم والدين في

الغرب للوهلة الأولى كان في عصر تقابل العلماء في مجال العلوم التجريبية مع أساطين الكنيسة، حتى أدى ذلك إلى أحداث مُرَّة كتأسيس محاكم التفتيش وغيرها، ولم تزل آثارها السلبية تلوح في أوروبا في ذلك الآن. وما يكون كنتيجة طبيعية لهذا الصدام أن تقوم فئة بعزل العلم والدين مطلقا، وفئة أخرى تتوجه إلى تناسقهما. لكن الفئة الثانية تنقسم لقسمين أحدهما تؤمن بتداخل العلم والدين وأخرى تؤمن بتآلفهما.

كانت مصر أول من يتأثر من الدول العربية بل الإسلامية بهذه الأفكار بسبب قربها من أوروبا وبسبب دخول الفرنسيين إليها، حتى سافر عدد كبير من مسلميها المثقفين إلى أوروبا أو درسوا فيها، فعادوا إلى شعوبهم يحملون معهم هذه الأفكار مزوّدة بالعلم والتقنية. لهذا السبب قام كثير من العلماء والمفسرين بتفسير الآيات العلمي لحوافز عديدة منها: الدفاع عن الحقائق الدينية وإثبات إعجاز القرآن، وتارة بسبب الانفعال أمام العلوم الحديثة أو التأثر بالأفكار الملتقطة.

وهذا الاختلاف في الحوافز أدَّى إلى الاختلاف في الرؤية في التفسير العلمي. لكنما في الغرب، بسبب وجود خلفيات خاصة وطروء إشكالات على الكتاب المقدس وكذلك دأبَ أساقفة الكنيسة وسلوكهم الخاص، انتهى تعارض العلم والدين إلى تقييد الدين في مداخلته مع الأمور أو العَلمانية، في حال أنّ العلماء المسلمين كانوا يحاولون أن يبيّنوا تناسق الإسلام مع العلوم الحديثة. إذن معما أنّ ابن سيناء والغزالي كانا يُعَدَّانِ مبدِعَي هذا النوع من التفسير، لكنا نبصر تسامي هذا الشكل من التفسير في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، عندما تمّ انتشار هذه التعارضات والاصطدامات في

الكتب والجرائد والمجلات وترجمت إلى العربية شيئا فشيئا وانحدرت نحو الدول الإسلامية.

عند ملاحظة التفاسير التي تمّ إنشاؤها في العصور المتأخرة والتي تميزت عن سائر الأنواع من التفاسير، يمكننا أن نرى أكثرها انسجاما في تفسير كـ"الجواهر" للطنطاوي (م ١٣٥٨)، وعند ملاحظة ما يحدث من رفض أو إثباتات أكثر جدية للتفسير العلمي منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى الآن، نتمكن أن نعدَّ التفسير العلمي متعلقا بالعصور المتأخرة.

أهم نقطة تغيير مرّ بها التفسير العلمي تتعلق بالقرنين المنصرمين. فإننا نشاهد في هذا الزمان نموَّ علم المسلمين وازدهاره نتيجة التعامل مع الغرب، كما أنهم أدركوا مدى تأخّر المسلمين فصاروا يطرحون شبهات عديدة منها: شبهة اختلاف العلم والدين والتي أدَّت إلى توجّه المفسرين نحو التفسير العلمي كتيّار ورؤية تفسيرية بالجانب للرؤى الأخرى. لكن بسبب اختلاف المآخذ ورؤية المفسرين للتفسير العلمي وخاصة بسبب نتائج هذا التفسير، تشكلت رؤيتان كليتان، إحداهما إيجابية وأخرى نافية له:

1. الرؤية النافية والتي تؤكد على جانب هداية القرآن، تسعى بأن تبيّن مكانة القرآن ككتاب سماوي مُنزَل لتنذر من نتائج التفسير العلمي.

2. الرؤية الإيجابية تسعى أن تعد التفسير العلمي كتيار مقبول في مجال التفسير عبرَ بيان قواعده وحدوده وثغوره الخاصة به.

يعتقد بعضُ المفسرين بأنّ التفسير العلمي يعني استسلام القرآن أمام النظريات العلمية التي يمكن أن تخضع لتغييرات، وأنها تقوم عادةً عبر تأويل النصوص القرآنية وتحميل ألفاظها بمفاهيم جديدة.

على سبيل المثال: يقوم أمين خولي عبر رؤيته الأدبية في التفسير، بتعريف التفسير العلمي بأنه يجعل المصطلحات العلمية

حاكمة على القرآن وأنه يسعى بأن يستخرج العلوم العديدة والآراء الفلسفية من القرآن، فلا ينفي خولي اعتبار التفسير العلمي ولا صحته، بل يعد التفسير العلمي عبر هذه الرؤية مخالفا مع قواعد فهم القرآن. ثم يستذكر رؤية الغزالي بأنها من ضمن المتاهات الخاطئة التي أدرجت ضمن التفسير. ثم يشير إلى هذا النوع من التفسير من منظور مؤيديه بأنهم يسعون إلى تأييد إعجاز القرآن عبره لإثبات صلاحية القرآن للحياة الدنيا.

ثم يقوم . عبر هذه العقيدة . بعد ذكره لفئةٍ من المفسرين القدامى والمعاصرين (مروراً بالفخر الرازي حتى الطنطاوي) الذين يؤيدون التفسير العلمي، بذكر حجج المنكرين للتفسير العلمي وفي الختام ينقد هذا التيار التفسيري من منظور لغوي وأدبي وبلاغي وديني واعتقادي. ملخص مقاله يشير إلى أنّ في التفسير العلمي، تُفهم الألفاظ في معانيها الجديدة والمتحوِّرة، وهذا ينتج حمل اللفظ على معنى لم يكن مألوفا ولا معروفا، بل إنه معنى أُحدِثَ بعد نزول القرآن بل بعد عدة قرون لدى الأمة. على هذا الأساس يصبح التفسير العلمي مرفوضا نظرا لكيان القرآن الأدبي والبلاغي؛ لأنّ البلاغة تعني مطابقة الكلام لمقتضى الحال، في حال أن في التفسير العلمي يشار إلى معان ومفاهيم لم تكن معروفة ولا مألوفة لدى مخاطبه البدائي، بل استطاع البشر فهمها بعد زمان طويل وجهد حثيث. وقد طرح أمين خولي عدداً من الأسئلة بُغيةَ تأييد مآخذه؛ منها: إن كان الله قد قصد هذه المعاني، فهل استطاع العرب المعاصرون للرسول فهمها؟ إن كانت الإجابة إيجابية فلماذا لم يُحدثوا ثورة علمية على ضوء فهمهم للآيات؟ وإن كانت الإجابة سالبة فلم يكن العرب ليفهموا المعاني المرمي إليها من قبل التفسير العلمي، فكيف يمكن أن تعد هذه المعاني ضمن ما كان يقصده الله؟

هل يمكن أن تعد مثل هذه القضية مراعاةً لمقتضى الحال؟ ثم ينقد التفسير العلمي من منظور ديني واعتقادي فيقول: هل القرآن كتاب يتحدث مع الناس حول مشاكل الكون والأحداث العلمية؟ كيف يمكن لمثل هذا الكتاب أن يكون خاتمة للكتب السماوية، في حال أنّ المعتقدين بالقرآن لم يتوصلوا إلى حدود معينة من هذه العلوم؟ كيف يمكن للقرآن أن يحتوي على جميع العلوم كالطب والنجوم والهندسة والكيمياء في حال أنّ هذه العلوم تخضع لتطورات وتغييرات في كلِّ يوم؟ من الواضح أنّ الكتاب الديني لا يتكفّل التوجه إلى هذه الأبحاث في حياة مخاطَبيه وليس عليه بيانها ولا توضيحها. ويؤكد في الختام أن ضرر طرح هذه الأبحاث العلمية في تفسير القرآن يفوق على نفعها. وإذا أراد أحد بأن يرد على شبهة تعارض العلم والدين، يكفيه أن يثبت بأن ليس في القرآن نصٌ صريح يخالف الحقائق العلمية؛ لأنّ المزيد على هذا خارج عن صلاحية الكتاب الديني وليس جديرا أن نربط المسائل العلمية بتكلف ومشقة بالقرآن (خولي، ١٩٣٣: ٥/ ٣٥٧ . ٣٦٢). إنّ الذهبي أيضا ينكر التفسير العلمي بعد التوكيد على كونه جالبا للأضرار، ثم يشير إلى أنّ القرآن ليس مخالفا للاكتشافات العلمية، وبعد بيانه لرأي الشاطبي المخالف للتفسير العلمي يقوم بتأييده ثم يقوم بنقد التفسير العلمي كأمين خولي لغويا وبلاغيا واعتقاديا ويذكر في نهاية المطاف: إنّ الله أنزل القرآن إلى جميع البشر إلى يوم القيامة. فإن قمنا بما يقوم به الآخرين من حمل القرآن على كل شيء وحسبنا القرآن مصدرا لكل العلوم، فإننا سنخدش عقيدةَ الناس حول القرآن؛ لإنّ قواعد النظريات العلمية وأسسها غير ثابتة. وإن جعلنا للقرآن مقاصد وغايات ثم ينكشف بطلانها، سوف تتزلزل عقيدة الناس حول القرآن، ولا يمكن أن يكذِّبَ القرآن ما قام بتصديقه سابقا. إذن يكفينا

أنه ليس في القرآن ما يتنافى مع الحقائق العلمية الثابتة. ومِن جانب آخر يمكن الجمع بين القرآن وبين اكتشافات البشر السابقة والراهنة (الذهبي، د. ت: ٢/ ٤٩١ ـ ٤٩٤).

لقد قام الشيخ محمود شلتوت ـ من العلماء اللامعين في الأزهر ـ بنقد التفسير العلمي في مقدمة تفسيره عبر بحث مفصل. يقول في بداية بحثه: لقد قام العلماء المسلمون على مدى تاريخ التفسير بمناقشة علوم عديدة كالبلاغة والتجويد والتفسير والكلام والفقه والأصول و... بغية فهم معارف القرآن وحفظه من التحريف، بل توجهوا إلى الشعر نظرا لترقية مستوى الذوق ونموّ المكنة والتمهيد لفهم القرآن ودرك جمالياته. لهذا السبب اشتملت تفاسير القرآن على تعدد في الأشكال والأذواق، ففي بعضها سلطت الأضواء على القواعد النحوية وفي بعضها تمّ التوجه إلى الحيوث البلاغية وإلى إعجاز القرآن، كما تشاهد الأبحاث الفقهية والكلامية في البعض الآخر منها. ثم يقول: يجب أن نُبعدَ القرآن عن أمرين: أحدهما استخدامه للخلافات والصراعات المذهبية وثانيهما استنباط العلوم الحديثة والمعارف النظرية الجديدة منه. يقول فيما يقول الشيخ محمود شلتوت بعد مقدمته الطويلة بأنّ الرؤية العلمية للآيات رؤية خاطئة وللاستدلال على هذا النفي: إنّ الله لم ينزل القرآن ليحدث الناس عن النظريات العلمية والنكات الفنية؛ لأنّ مثل هذه الرؤية تجبر محبيّ القرآن على أن يلزموا أنفسهم بتأويل القرآن بتكلف بالرغم من أن هذه الحالة لا تتلائم مع إعجاز القرآن والذوق السليم. فإنّ هذه الرؤية تجعل القرآن عُرضة للتغيير بسبب عدم ثبات الأسس العلمية، إذ يمكن أن يعد العلم شيئا صحيحا ثم يتبين في المستقبل أنه من الخرافات. إذن لو قمنا بتطبيق القرآن على المسائل العلمية المتغيرة فإنّا سنجعل القرآن محتملا للتغيير بل نحمله

عواقب أخطائها، في حال أننا نعد أنفسنا مجبولين على الدفاع عن القرآن (شلتوت، ١٣٨٩: ٤ . ١٠). لكن مخالفته للتفسير العلمي لا تعني أنه يعتقد باختلاف القرآن مع العلم، بل إنه لا يعد العلم والقرآن متعارضين إذ يصرّح أنّ إشارات القرآن لأسرار الكون والظواهر الطبيعية هي لغرض التأمل والبحث والتدقيق لتوثيق إيمان الناس، ويكفينا مجرد عدم مخالفة القرآن مع الحقائق العلمية.

في الحقيقة، إنّ هذا ملخص قول المخالفين مع التفسير العلمي:

أ: إنّ القرآن كتاب هداية، ولم ينزله الله لتبيين النظريات العلمية؛

ب: إنّ التفسير العلمي للآيات لا يتلائم مع فصاحتها وبلاغتها؛

ج: إنّ تغيّر النظريات العلمية تسبب في جعل القرآن عرضة للتغيير والتعارض؛

د: إنّ التفسير العلمي يستوجب تحميل أمور على القرآن لا تحتملها ألفاظه؛

هـ: في الحقيقة، إنّ توظيف المسائل العلمية لفهم آيات القرآن هي عبارة عن استخدام أدوات فاشلة للتفسير؛ لأنّ المسائل العلمية مجهولة لدى العربي المعاصر لنزول القرآن.

خلافا للفئة التي تنكر التفسير العلمي وتعده مخالفا للأصول التفسيرية المقبولة، هناك فئة أخرى وهي تشكل غالبية المفسرين، تعرب عن قبولها للتفسير العلمي وتصرح بضرورة التوجه إلى العلوم العديدة في التفسير. هؤلاء هم من قاموا بالتفسير العلمي في تفاسيرهم وقالوا بأنّ جميع العلوم موجودة في القرآن حتى العلوم التجريبية، ومن هذا المنطلق أقروا بلزوم توظيف العلوم التجريبية في التفسير زيادة على مناقشة الأبحاث التفسيرية، لكنهم عند التوصية بتوظيف العلوم يوسعون الرؤية على شمول العلوم العديدة كالتجريبية والإنسانية، وفي نفس الوقت يعترضون على

التفاسير المفرطة (أسعدي، ١٣٨٩: ١/ ٤٥٠).

إنّ ابن عاشور من المفسرين الذين يوسعون دائرة شمول العلوم التي يحتاج إليها التفسير ويجيز استخدام العلوم التجريبية في التفسير، ويقول عند انتقاده لبعض المفسرين: «إنّ أحد نقاط الضعف لدى المفسرين هو عدم الالتفات إلى العلوم المفيدة والمؤثرة في فهم القرآن، هؤلاء يتصورون هذه القضية مشينة بالقرآن لكنها لو لوحظت بدقة سوف يتضح أنّ استخدام علوم كالتاريخ والسياسة وعلم الأديان وعلم الاجتماع تفيد في فهم رسالة القرآن وتوضيحها» (آيازي، ١٣٧٨: ٥٤).

كما كتب الشرقاوي حول مسيرة تطور التفسير والعلوم القرآنية: «إنّ نص القرآن كان يتراوح في مرّ القرون والعصور مع نموّ العلوم البشرية وكان يُلهم المفسرين ليستخدموا الثقافة والرؤى والمعارف البشرية في التفسير، فكلما طوَّر المفسرون علومهم لد أسرار الكون وبواطن الإنسان، يصبح كشفهم من أعماق النص القرآني أكثر فهما وأعمق علما» (الشرقاوي، ١٩٧٩: ٤٥).

٦. دراسة أسس التفسير العلمي

إنّ الباحثين في مجال التفسير، لم يتوسعوا في تبيين أسس التفسير العلمي. إنهم اختلفوا في تعيين أسس التفسير العلمي وتبيينها بسبب عدم وضوحها، فأكثروا من الأقوال المختلفة فيها وتارة أشاروا إلى أمور في كونها أسسا ومبادئاً للتفسير العلمي ولم يكن سبب اختيارها واضحا. كما يبدو، إنّ للتفسير العلمي زيادة على المباني العامة للتفسير العصري (يعني: شمول القرآن وخلوده، وتأصيله في المصادر الدينية، وتناسقه مع العلم) مبادىء خاصة تميزه عن التيارات التفسيرية الأخرى. والمباني الخاصة هي

كما يلي: شمول القرآن وخلوده، واشتمال القرآن على اللغة العلمية إلى جانب اللغة العرفية، وموضوعية الأبحاث العلمية في القرآن (وهي تجنُّب الباحث للتَّحيُّز الشخصي، وعدم إصدار الإحكام إلا بعد فحص ما لديه من أدلَّة وبراهين بتجرُّد وشفافية)، وعدم المنافاة بين هداية القرآن وطرح الأبحاث العلمية.

٦ . ١. شمول القرآن وخلوده

تعقيبا على مواجهة الثقافة الغربية والعالم الإسلامي في القرن الثامن عشر، عرَّف المستشرقون الإسلام دينا فاقدا لطاقة إدارة الفرد والمجتمع (شريف، ١٤٠٢: ١٩٥) وسعوا سعيهم لإثبات تأخر الإسلام وعدم شمولية تعاليمه، حتى نفوا مَقدُرة القرآن الأبدية للتجاوب مع ما يحتاجه المجتمع. سببت هذه الرؤية بأن يبادرَ عددٌ من العلماء والمثقفين المسلمين كالسيد جمال الدين ومحمد عبدُه بجهد حثيث لتعريف الإسلام بتعاريف حديثة. إنهما كانا يؤكدان على أصالة القرآن في هداية المسلمين وسعادتهم وكانا يعتقدان بأنّ فهم أوامر القرآن وتعاليمه واستخدامها ينتج العزة والسموَّ. كما أنّ التقصير في هذا الجانب ينتج الضعف والتأخر. لهذا جعل المفسرون إعادة قراءة رسالة القرآن دأبهم وبهذا السبب نشأت التفاسير الجديدة. كان يعتقد هؤلاء المفسرون . بعد اعتقادهم بشمول القرآن وأبديته . بأن ثقافة عصر النزول وظروفها الخاصة كانت قسما آليّاً لغرض إيصال الرسالة الإلهية.

كتب فضل الله حول هذا الأمر: إنّ الآية لا تتجمد في النقطة التي انطلقت منها ونزلت فيها؛ لأنّ أسباب النزول لا تمثل إلّا المنطلق الذي تحرّكت الفكرة من خلاله بعيدا عن كلّ ما يحددها ويقيدها في دائرته، ولذلك عاشت الآيات الكريمة لتتسع وتمتد مع الزمان والمكان في كلّ مجال يتسع للفكرة

وللمفهوم من خلال الأنموذج الأول، فكان من جرّاء ذلك أن أصبحت الآيات تعيش معنا صراعاً مع الكفر والشرك والظلم والطغيان تماما كما كانت تعيش مع نماذجها الأولى صدقا والتزاما وإرادة حرة تتحدى الواقع المنحرف بكلّ ما تملكه من خطوات الحرية في الفكر والعمل (فضل الله، ١٤١٩: ج ١، ٢٥). كما ذكر عبدُه بعد الإشارة إلى قاعدة (العِبرةُ بعموم اللفظ لا بخصوص المورد): إنّ القرآن يقصد دائما من تنبطق عليهم هذه النماذج؛ لأنّ هداية القرآن وإرشاداته عامة وشاملة وهي حجة إلى يوم القيامة. إنه كان يحلل آيات القرآن بهذه الرؤية (رشيد رضا، ١٤١٤، ج ١، ١٧٩).

٦ . ٢. اشتمال القرآن على اللغة العلمية إلى جانب اللغة العرفية

إنّ معرفة لغة القرآن تؤثر في رؤية المفسر حول نصه تأثيرا بالغا. ومن الطبيعي إذا عدَّ أحدٌ لغةَ القرآن لغةً عرفية أو لغة أدبية، سوف لن يتوقع من نص القرآن سوى نتائج عرفية أو أدبية. لهذا إن قام أحد بالتفسير العلمي للقرآن فإنه يعتقد قطعا بأنَّ لغةَ القرآن لغةٌ علمية، ولأنّ المخاطب البدائي للقرآن لم يعرف عن الأسرار والصعوبات العلمية شيئا، إذن فالقرآن تحدث مع ذلك المخاطب بمقدار فهمه واستيعابه العرفي، على هذا يجب أن تكون للقرآن لغةٌ ذات أوجه أو ذات وجهين على أقل تقدير، ليستوعبه جميع المخاطبين به في كل العصور على مختلف قدراتهم الفكرية ومستوياتهم من الفهم. إنّ بعض المفسرين عدَّ هذه الحالة تعددية في المعاني، ويقصدون بذلك أنه يمكن للفظ الواحد أو العبارة في النص الواحد أن تفيد معاني عديدة ومنوعة عند استعمالها مرة واحدة، وأن تعد كل هاتيك المعاني قصدا للمتكلم. إنّ المفسرين يختلفون في قبول هذا المبنى، لكن على كل حال، من كان يودّ تبيين مأخذ علمي من القرآن

الكريم، فعليه أولا أن يقبل بأنّ القرآن يتكلم عبر لغة علمية. لكنّ بعض المفسرين يؤكدون على تبيين هذا المبنى من قبل المفسر، وذلك بسبب الاختلاف في نوعية دلالة ألفاظ القرآن وعباراته. يقول الدكتور شريف بعد طرحه لهذه المسألة: يجب على المفسر في إنشاء التفسير العلمي أولا بأن يقول، هل تُعتَبر حجّيّة دلالة الألفاظ والعبارات في زمن النزول؟ أم الحجية للحقائق العلمية التي تنكشف في مرّ العصور وتنطبق عليها الآيات؟ لأننا لو قلنا بأنّ مفردات الآيات كانت تدل على معانيها البسيطة فقط عند النزول، إذن كيف للمخاطب البدائي أن يكون قد فهمها؟ بالرغم من أنّ القرآن قد نزل على أمة لم تكن ذات اختصاص علمي ومن الطبيعي أنها لا تفهم من الآيات غير الظواهر. لكن شريف يؤكد على أن التفسير العلمي يجب ألا يمنع عن فهم الوجوه الدلالية الأخرى من القرآن؛ لأن كلَّ المعاني التي تحصل من لفظ الآيات، يمكن أن تُعَدَّ ضمنَ القصد الإلهي ما لم تتعارض مع القواعد اللغوية والأدبية (شريف، ١٤٠٢: ٦٧٨).

٦ . ٣. موضوعية المباحث العلمية في القرآن

إنّ المبنى الثاني الذي يجب على المفسر أن يقبله لدى التفسير العلمي، كي يستطيع من تحليل الآيات وفهمها عبر استخدام الأدوات العلمية والمعلومات التجريبية هي أن يقبل بإشارات الآيات العلمية بكونها واقعا لا مجرد إشارة ومثال. وهذا يمكن أن يُسَمَّى بموضوعية المباحث العلمية في القرآن. إذن على هذا المبنى، لا يستطيع المفسر الذي يرى الإفادات العلمية مجرد إشارات تأتي كمثال أو تفنّن في العبارة أو للتماشي مع عقائد المخاطب، أن يفسرَ هذه الآيات على ضوء الاكتشافات العلمية. لذلك أكَّد بعض المفسرين على هذه النقطة، من أنّ طرح المسائل العلمية

في القرآن تصلح كي تمهدَ أرضيةً لدخول المخاطب في ساحة الأبحاث العلمية. مضافا إلى جانب هداية القرآن. كما أن عدم متابعة هذه الأبحاث يسبب توقفا في فهم الآيات وتأخرا في بعض معارفها. على هذا النسق، أكد الغزالي كما ذكرنا سابقا، على أن جذور جميع العلوم متوفرة في القرآن، لذلك أوصى المسلمين بالتفكر في الإشارات القرآنية بغية الحصول على هذه العلوم (الغزالي، ١٤٠٢: ١/ ٤٥؛ الغزالي، د. ت: ٨). أو كما أنّ الزركشي يقول: وفي القرآن علم الأولين والآخرين، وما من شيء إلا ويمكن استخراجه منه لمن فهّمه اللّه (الزركشي، ١٤١٠: ٢/٣٢٠). إنه يؤكد على هذا القول في ضمن أبحاثه، رغم أنه ينفي التعارض بين هداية القرآن وعلمية آياته بل إنه يعد التوجّه إلى هذه الأمور قسما من هداية القرآن. إنّ الشيخ محمد عبده أيضا طرح الأبحاث العلمية في القرآن أمارة على أرضية التفسير العلمي في القرآن؛ لأنّ القرآن يشتمل على مسائل طبيعية واجتماعية وعلمية لم تكن مألوفة في زمن النزول، بل هي تنكشف لدى العلماء والمحققين في مرّ العصور، ولما تزل هذه القيود القرآنية مؤالفة للاكتشافات العلمية» (رشيد رضا، ١٤١٤: ١/ ٢٠٨ و٢١٠). كما أنّ «الكلام عن الأمم، وعن السنن الإلهية، وعن آياته في السماوات والأرض، وفي الآفاق والأنفس، وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شيء علما، وأمرنا بالنظر والتفكر، والسير في الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاء وكمالا، ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة في ظاهره، لكنا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده لا بما حواه من علم وحكمة» (نفس المصدر: ١/ ٢٣). وحسب عقيدة هذه الفئة، إنّ هذه الرؤية حول الآيات العلمية في القرآن تستوجب أن يحصل المفسر على مفاهيم أخرى تشتمل على أصول علمية دقيقة وظريفة لم يحصل عليها أحد سابقا، بل هي

تُعرَف بعد تطور العلوم التجريبية في العصور المتأخرة، زيادة على المعارف التي تُفهم من ظواهر الكتاب. إنّ العلماء يستخرجون العلوم العديدة من النصوص القرآنية أو من إشاراتها ورموزها، كما أن ذيل الآيات يدل على وجود معارف ونقاط خاصة ظريفة، ولا يستطيع فهمها سوى ذوي الدقة والتفكر، كالآيات ٩٧ و٩٨ و١٢٦ من سورة الأنعام (شريف، ١٤٠٢: ٦٥٧). كما أنّ الطنطاوي يعتقد بموضوعية الآيات العلمية في القرآن ويعد إهمال المسلمين وابتعادهم عن العلوم العديدة سببا لضعفهم وفشلهم وبعد الإشارة للآية ١٠ حتى الآية ١٣ من سورة الصف يعد اكتساب العلم مصداقا للجهاد ويقول: هذه الآية ذكر فيها الله لنا تجارة ودلنا عليها وجعل تلك التجارة تنجينا من عذاب أليم. ما هي تلك التجارة؟ هي أن نؤمن بالله ورسوله ونجاهد في سبيل الله بأموالنا وأنفسنا وضمنَ لنا بذلك أمرين: «الجنة في الآخرة والنصر في الدنيا. طلب الله منا أمرين وضمن لنا أمرين طلب الإيمان والجهاد وضمن الجنة في الآخرة والنصر في الدنيا؛ أما الإيمان فمعلوم وأما الجهاد فأنا أشرحه لكم. يظن الجهال أنّ الجهاد إنما هو حرب الكفار وحده. كلا! إنّ الجهاد كما نص عليه علماء الفقه لا يختص بحرب العدو، بل يشمل سائر الأعمال العامة فترقية الصناعة والزراعة ونظام المدن وتهذيب النفوس وإعلاء شأن الأمة كل ذلك جهاد... ولا جرم أنّ الله ضمن لمن جاهدوا هذا الجهاد أن يدخلهم الجنة وينصرهم على عدوهم فليجاهد المسلمون وليعرفوا جميع العلوم والصناعات التي منها العدد الحربية والآلات الصناعية والخدع الحربية والسياسات المدنية فإنّ الله ضامن لهم النصر (هذه سنة الله) (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا) ولن تجد لسنة الله تحويلا وليس النصر مضمونا لنا ونحن غافلون أنّ الله أمرنا بالنظر والتعقل والتفكير» (الطنطاوي، ١٩٢٦: ١١ـ١٤).

٦ . ٤. عدم منافاة هداية القرآن مع التحرّي من المسائل العلمية

من المباني الأخرى للتفسير العلمي هي أنّ القرآن بالإضافة إلى شأنه في الهدي والهداية يستطيع أن يطرح المسائل العلمية للناس. فكما قد أشير سابقا، إنّ بعض المفسرين يرون المسائل العلمية غير ملائمة بل مانعة لهداية القرآن (الذهبي، د. ت: ٢/ ٤٩١ . ٤٩٤؛ شلتوت، ١٣٨٩: ٤ . ١٠). من هذا المنطلق أكّد بعض المفسرين أن ليس بين هذين اختلاف، بل إنّ العلم يزيد من معرفة الإنسان لقوانين الكون والسنن الإلهية في هذا العالم، ويرينا طرق تسخير الكون كما أنّ الدين يدل الإنسان على طرق الصلاح والتصرف الصحيح الذي يضمن خيره ومصالحه. فإن صار الدين دليلا للعلم ودلّه على العديد من الأبعاد والجهات، تحصل عند ذلك سعادة البشر، لذلك قال الله في القرآن: «إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ» (فاطر: ٢٨) إذن يجب الانتباه هنا فيما إذا وُضع العلم الطبيعي على أساس اليقين وحصل لدينا تفسير صحيح ومطابق للحق من الدين، فسوف لن يتعارض العلم والدين معا. فالدين ينمو في روضة العلم والعلم يجعل الإيمان والدين مزدهرين (شريف، ١٤٠٢: ٦٢٨).

لكن عند الانتباه إلى الخلاف الحاد بين الموافقين مع التفسير العلمي يجب القول بأنّ هذه المباني تتجلى أكثر في بعض كتب المفسرين، كما أنها توشك أن تختفي في كتب البعض الآخر. من هذا المنطلق عندما يلاحظ الباحثون كتب هذا التيار العلمية، يعتقدون بأن هناك ثلاث رؤى مختلفة في التفسير العلمي:

٧. الرؤى العديدة في التفسير العلمي

أشار الباحثون إلى ثلاث رؤى في التفسير العلمي نظرا للتفاسير العلمية المنتشرة.

١ . ٧. استخراج العلوم من القرآن

من مسلمات هذه الرؤية، أنّ القرآن يشتمل على جميع العلوم البشرية، إذن لكل علم من العلوم جذور في القرآن (رفيعي محمدي، ١٣٧٩، ١: ١٤٣؛ رضايي اصفهاني، ١٣٧٥: ٣٧٨). نشأت هذه الرؤية عند الغزالي. إنه كان يعتقد بأنّ القرآن يشتمل على جميع علوم الماضي والمستقبل، ويمكن أن تُستخرَج جميع العلوم من القرآن (الغزالي، ١٤٠٢، ١: ٣٤١). لذلك يعتقد فى تفسير الآية ٨٠ من سورة طه (وإذا مَرِضْتُ فهوَ يَشفِينِ) بأن علم الطب يمكن أن يُستخرَج من القرآن (الغزالي، د. ت: ٢٧). في الحقيقة، إنّ هذه المجموعة من المفسرين صاروا يُأوّلون الآيات، ليستخرجوا النظريات العلمية التي يريدونها من القرآن بعد ابتعادهم عن ظواهر ألفاظ القرآن ومعانيها اللغوية. ومن المعاصرين يمكن عَدّ الطنطاوي والذي يذعن في تفسيره (الجواهر في تفسير القرآن) بأنّ القرآن يحتوي على جذور جميع العلوم، ولا يمكن تفسير القرآن سوى عبر العلوم الحديثة. إنه أوّلَ الكثير من الآيات القرآنية، لأنّه يعتقد بأن ليس هناك طريقة تفسيرية في العصر الراهن تستطيع أن تستجلي إعجاز القرآن وخلوده، حتى قال الذهبي في وصف كتابه: إنّ هذا الكتاب معجم علمي، تتواجد فيه منافع كثيرة من كل العلوم... إنه يتوسل بكل الأحداث والأدلة ليثبت قول الله: (ما فرَّطنا في الكتاب من شيء) (الذهبي، د. ت، ٢: ٥١٧). على سبيل المثال، فإنّ الطنطاوي يكتب في تفسير سورة طه: إنه [الله] هدى الحيوان، إلى ما خلق له وما فيه نفعه وهذا قوله تعالى: (الذي أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) وكقوله تعالى: (الذي خلق فسوى* والذي قدّر فهدى) وهذه فيها الطاء أولا والهاء ثانيا في أعطى وهدى فكأنه يقول: إنّ القرآن يراد منه دراسة سائر العلوم، وسائر العلوم هي التي جاءت في محاورة فرعون وموسى كما جاءت في مقدمة السورة ويجمعها كلها أعطى وهدى وهذان يجمعهما

"طه" فإذن الطاء والهاء يرمز بهما إلى دراسة العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية وهكذا كل علم في الدنيا؛ لأنها كلها ترجع إلى هذا الجملة (الطنطاوي، ١٤٣٧: ١٠/ ٥٩).

٢ . ٧. تطبيق العلوم على آيات القرآن

في هذه الرؤية، يقوم المفسر بعد عدِّ نظريات العلوم التجريبية من المسلمات، بالبحث عن مصاديقها في الآيات، ثم يقوم بتطبيق الآية المعثور عليها على تلك النظرية. تنتهي هذه الرؤية إلى التأويل والتفسير بالرأي وانحراف الآيات عن معناها الظاهري. على سبيل المثال في الآية الشريفة «هُوَ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها» يفسرون كلمة (النفس) بالبروتون وكلمة (الزوج) بالإلكترون ويعتقدون بأن قصد الآية هو: أننا خلقناكم من البروتون والإلكترون واللذان هما جزءا الذرة. وهذا يعني أنهم لم ينتبهوا للمعنى اللغوي، ولا الاصطلاحي لكلمة (النفس).

٧ . ٣. استخدام العلوم لفهم القرآن

إنّ هذه الرؤية محايدة، ففي هذه الطريقة يستخدم المفسر العلم لفهم القرآن وبالاستعانة بالاكتشافات العلمية يقوم بتبيين صحة معارف القرآن وصدقها (رفيعي محمدي، ١٣٧٩، ١: ١٤٠). في هذه الرؤية يرى المفسر هداية القرآن غايته القصوى وهدفه الأكيد لا حلَّ ألغاز عالم الطبيعة، لكن في القرآن وفي ضمن أبحاثه التوحيدية والمعادية والأخلاقية وغيرها يقوم بإزالة الستار عن الحقائق العلمية. ففي ذلك يقوم بإخبار أتباعه عن مجريات علوم الطبيعة زيادة على حصول النتائج الاعتقادية والأخلاقية. في هذه الرؤية التفسيرية يكون المفسر مُلمّاً بالأدب العربي وسيرة الرسول وتاريخ نشأة الإسلام وشأن نزول الآية، بمقدار ما تتطلبه منه، ثم يفسر القرآن عبر

الاطلاع عن العلوم القرآنية كالناسخ والمنسوخ ومراجعة الروايات وأصول الفقه والآراء الفلسفية والعلمية والاجتماعية والأخلاقية والابتعاد عن التسرع في الحكم، كما عليه ألّا يقوم بالتقليد من السابقين من المفسرين وأن يراعي المعايير التفسيرية، وهي: اتباع الطريقة الصحيحة للتفسير، والتفسير عبر السنة القطعية والعلوم القطعية التي تُؤَيَّد بالحجة العقلية زيادة على تأييدها بالتجربة.

إنّ نماذج هذه الطريقة، كالتالي: قضية حركة الأرض على ضوء آية «ألم نجعل الأرض مهادا» (النبأ: ٥)، وكون الأرض كروية على ضوء آية «ربّ المشارق والمغارب» (المعارج: ٤٠)، ودور الماء في قضية التكوين والحياة «وجعلنا من الماء كل شيء حي» (الأنبياء: ٣٠)، والزوجية في الكائنات على بالاستناد إلى الآية «ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» (الذاريات: ٤٩)، ودور الرياح في نشأة السحاب والمطر على ضوء الآية «والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميّت» (فاطر: ٩).

النتيجة

إنّ التفسير العلمي من التيارات الهامة المعاصرة في مجال التفسير، إذ كان ردّا للمفسرين على الأسئلة الحديثة، وفي الاستمرار صار أبلغ أهمية عند تطور العلوم والمعلومات البشرية، فقد اهتم المفسرون بهذه الرؤية في التفسير حتى طبع أهم مصدر تفسيري لهذا التيار "الجواهر" لغرض التحفيز على إثبات التعاليم القرآنية وبيان عدم منافاتها مع الاكتشافات البشرية.

يمكن أن يُستَنتَج من تاريخ هذا التيار التفسيري بأنه كانت هناك نظرة سطحية بالنسبة إلى تناسق القرآن مع العلوم التجريبية في كل عصر من العصور، لكنها لم تكن جادة ولا شديدة كما هي عليه في القرنين المنصرمين من حيث التغيير الفكري لدى المخاطبين واستجابتها لمتطلباتهم. لهذا

لا يمكن أن تعد التفاسير أو الاستنتاجات السابقة ضمن هذا التيار التفسيري.

إنّ المفكرين والمفسرين قد عرفوا غاية التفسير العلمي بأنها استخدام الحقائق والاكتشافات العلمية بُغيةَ تبيين معاني الآيات وسِعَة شمولها، كما يعتقدون بأنّ آيات القرآن ودلالة ألفاظها تتبين عبر استنادها إلى اكتشافات العلوم التجريبية. إنّ هذا البحث يرى . عبر الإشارة إلى آراء مفسري هذا التيار . أن نشأة هذا التفسير تعتمد على ثلاثة مبان خاصة: قبول اللغة العلمية إلى جانب اللغة العرفية، وموضوعية المباحث العلمية، وعدم منافاة هداية القرآن مع التحري من المسائل العلمية.

المصادر

القرآن الكريم

أبو حجر، أحمد عمر (١٤١١) التفسير العلمي للقرآن في الميزان، بيروت: دار قتيبة.

أسعدي، محمد وآخرون (١٣٨٩) آسيب‌شناسي جريان‌هاي تفسيري [باثولوجيا التيارات التفسيرية]، قم: پژوهشگاه حوزه و انديشه.

آيازي، سيّد محمّد علي (١٣٧٨) قرآن و تفسير عصري [القرآن والتفسير العصري]، دفتر نشر فرهنگ اِسلامى.

خولي، أمين (١٩٣٣) دائرة المعارف الإسلامية. بيروت: دار المعرفة.

الذهبي، محمّد حسين (د. ت) التفسير والمفسّرون. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

رشيد رضا، محمّد (١٤١٤) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار). بيروت: دار المعرفة.

رضايي أصفهاني، محمّد علي (١٣٧٥) درآمدي بر تفسير علمى قرآن [مدخل إلى التفسير العلمي للقرآن]. قم: أسوه.

رفيعي محمدي، ناصر (١٣٧٩) تفسير علمي قرآن (سير تدوين و تطوّر) [التفسير العلمي للقرآن (عملية التجميع والتطور)]، طهران، فرهنگ گستر.

الرومي، فهد بن سليمان بن عبد الرحمن (١٩٨٦) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر. رياض.

الزركشي، محمّد بن عبد الله (١٤١٠) البرهان في علوم القرآن. بيروت: دار المعرفة.

السيّد غنيم، كارم (١٤١٥) الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق، القاهرة: دارُ الفكر العربي.

السيوطي، جلال الدين (٢٠٠١) الإتقان في علوم القرآن. بيروت: دار الكتاب العربي.

الشرقاوي، عفّت محمد (١٩٧٩) الفكر الديني في مواجهه العصر (اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث). بيروت: دار العودة.

شريف، محمّد إبراهيم (١٤٠٢) اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر. القاهرة: دار التراث.

شلتوت، محمود (١٣٨٩) تفسير قرآن كريم [تفسير القرآن الكريم]: ترجمة محمّد رضا عطايي، مشهد: اِنتشارات آستان قدس رضوي.

صدرُ الدين الشيرازي، محمد بن إبراهيم (١٣٦١) تفسير القرآن الكريم (صدرا). قم: نشر بيدار.

الطبرسي، فضل بن حسن (١٣٧٢) مجمع البيان في تفسير القرآن. طهران: ناصر خسرو.

طنطاوي جوهري (١٩٢٦) القرآن والعلوم العصرية. مصر: دار إحياء الكتب العربية.

.... (١٤٣٧) الجواهر في تفسير القرآن. مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

الطوسي، محمّد بن حسن (د. ت) التبيان في تفسير القرآن. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

عك، خالد عبد الرحمن (١٤١٤) أصول التفسير وقواعده. بيروت: دار النفائس.

الغزالي، أبو حامد (١٤٠٢) إحياء العلوم. بيروت: دار المعرفة.

.... (د. ت) جواهر القرآن. بيروت: المركز العربي للكتاب.

الفخر الرازي، محمد بن عمر (١٤٢٠) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب). بيروت: دار إحياء التراث العربي.

فضل الله، محمد حسين (١٤١٩) مِن وحي القرآن. لبنان: دار الملاك.

مصلايي پور، عباس و أبو الفضل حاجي حيدري و سيّد مهدي بيابانكي (١٣٩١) منطق تبيين آيات قرآن در تعامل با گزارههاي علوم تجربى [منطقُ تفسير الآيات القرآنية في تفاعلها مع العلوم التجريبية]، مجلة تحقيقات علوم قرآن و حديث. العدد ١٨. ص ١٠٥ - ١٣٦.